المحاضرة12: موضوعات الشعر الغنائي المعاصر

وعلى مستوى الموضوعات التي تناولها النص الغنائي العربي, فانه يمكن القول إن الشاعر بتعاونه مع صاحب اللحن قد طرق موضوعات متنوعة ومتعددة, ذات علاقة بوجدان الإنسان العربي وبقضاياه الجوهرية, وذلك بصورة تتجاوز ما هو سائد في الغناء حالياً على مستوى الأقطار العربية, وحتى الأوروبية, فعندما كتب الشاعر الجزائري قصيدته "أدعوك يا أملي" لتغنيها الفنانة "وردة الجزائرية" في الذكرى العاشرة لاستقلال الجزائر, من تلحين الراحل "بليغ حمدي", استطاع "صالح خرفي" أن ينجز لنا نصاً غنائياً رائعاً مزج فيه بين الحب الذي يجمع حبيبين, وبين فرحة النصر باستقلال الجزائر, بالمعنى الذي يوحي للمستمع أنه أمام لوحة غنائية يتراءى فيها الحب في أسمى معانيه, حين يجمع قلبين متحابين على وطن يحتفل بذكرى انتصاره على جراحه وآلام شعبه, فليس أروع من هذه العاطفة التي ترتفع بالحب إلى ذروة الوطن, وتتسامى باذن المستمع إلى مرتبة الصفاء والتجلي, حين تصبح فرحة الوطن هي الفرحة الكبرى في قلب الحبيب, حين تخاطب الحبيبة قلبها الآخر ويعلو صوت الوطن فوق صوت الحبيب:

"من بعيد أدعوك يا أملي وأهتف من بعيد

أنا لم أزل للحب للحب الوحيد

للذكريات الخالدة للزفرات الصاعدة

يوم المسير إلى الفدا وغداة تلبية النداء

صوت بلادي يا حبيبي صوت أعز من الحبيب

صوت الجزائر يا حبيبي

وقد أبدع في تلحين هذه الأغنية الرائعة "بليغ حمدي" بامتياز عندما طعم لحنه بمقطع لحني مستمد من إحدى أشهر الأغنيات الفلكلورية الجزائرية, وهي أغنية "ما نيش منا", وذلك في محاولة فنية لربط هذه الأغنية ذات الجوهر النضالي الجزائري, بالتراث الغنائي الأصيل النابع من الفلكلور الجزائري,فأعطى ذلك بعداً فنياً للأغنية..

وتتوسع موضوعات الغناء العربي المعاصر, لتتناول فلسفة الحب والجمال, من منظور شفاف تتجلى فيه الرومانسية الفنية في أرق معانيها وأبهى صورها, وذلك مع تجربة "فيروز" مع بعض نصوص وأشعار "جبران خليل جبران", التي تحولت مع صوت "فيروز" إلى لوحات ملونة بألوان الرومانسية الحالمة, فنجد أنفسنا منبهرين أمام فلسفة مترعة بالفن والجمال, تعكس للمستمع المتذوق التصور السليم والفهم العميق للفن, حين تتغنى "فيروز" بهذه الكلمات الموغلة في الرومانسية الجبرانية ومن ألحان "محمد عبد الوهاب":

"سكن الليل وفي ثوب السكون تختبئ الأحلام

وسعى البدر وللبدر عيون ترصد الأيام..

فتعالي يا ابنة الحقل نزور كرمة العشاق

علنا بذياك الرحيق نطفئ حرقة الأشواق"

واستطاع الشاعر الغنائي أن يأخذ بيد المستمع العربي إلى دوحة الارتقاء الفكري والوجداني, من خلال موضوعات تتناول فلسفات إنسانية, أبدعتها عبقرية الموسيقى العربية التي كانت سباقة إلى استيعاب المعاني الفلسفية المصاحبة للإنسان, والمعبرة ببلاغة فائقة عن تطلعات وأحلام الإنسان في هذه الحياة, حيث يوقفنا النص الشعري على نماذج رائعة لفلسفة غرقى في الدعوة إلى الاغتراف من اللذات والجمال, والارتماء في أحضان اللهو والطرب من منظور فلسفي تحضر فيه "الوجودية" بعنف, من خلال "رباعيات الخيام" بصورة خاصة :

"أولى بهذا القلب أن يخفقا وفي ضرام الحب أن يحرقا

ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشقا"

ونجد هذه الفلسفة تتصاعد أكثر مع "اسمهان" عند أدائها لقصيدة الشاعر "بشارة الخوري" التي يقول مطلعها:

"اسقنيها بأبي أنت وأمي لا لتجلو الهم عني أنت همي..

املأ الكأس ابتساما وغراما فلقد نام الندامى والخزامى ..

صبها من شفتيك في شفتيا ثم غرِّق ناظريك في ناظريا..

واختصرها, ما عليك أو عليا..."

مقابل هذه الفلسفة الحسية ذات البعد الوجودي, يضعنا الغناء العربي أمام فلسفة الجمال الصوفي والروحي فلسفة تبني ذاتها من نفحات "محمد اقبال", وفي الوهج الديني الصوفي في أغاني "رابعة العدوية" وفي "نهج البردة" و "القلب يعشق كل جميل" و "إلى عرفات الله" وغيرها من المطولات الغنائية للسيدة "أم كلثوم" وإلى جنب موضوعات التصوف الفلسفي الديني, لم يكن الغناء العربي بمعزل عن معايشة القضايا القومية للأمة التي ينتمي إليها ويعبر عن آمالها وتطلعاتها, وقد تجسدت هذه الفلسفة في أغنية "دعاء الشرق" التي يقول مطلعها:

"يا سماء الشرق طوفي بالضياء وانشري شمسك في كل سماء

ذكريه واذكري أيامه بهدى الحق ونور الأنبياء"

وهي القصيدة التي صاغ كلماتها الشاعر "محمود حسن إسماعيل" وبلغ في تلحينها "عبد الوهاب" مرتبة الكمال الفني, وأغنيات أخرى زاخرة بهذه المعاني, على عهد يكشف مواطن فلسفة الشعر والجمال والإبداع في الغناء العربي المعاصر, ويؤكد مدى تأثير الشعر العربي في تطوير مسار الأغنية العربية, ومدى تغلغل كلمات الشاعر في وجدان الفنان والملحن, بصورة تدفعه إلى التعمق في الإبداع, والسير قدماً باللحن إلى ما يستحقه من إبداع وتطور, جدير بإعجاب المستمع وباحترام الجمهور, وجدير بالخلود في وجدان التاريخ .